

قصص الماضي وأخبار المستقبل والآخرة

من قصة الغار إلى سؤال الساعة والحشر والحساب: أخبار نبوية تشرح صدق العمل والرجاء والمسؤولية، ثم تبين الفرق بين القصة الثابتة والإسرائيليات التي تحتاج تمييزاً في نقلها وتصديقها.

01 قصة الغار: أعمال خفية ظهرت قيمتها

يروي ابن عمر أن ثلاثة ممن كانوا قبلنا دخلوا غاراً، فسدت صخرة مخرجه. توجه كل واحد إلى الله بعمل أخلص فيه: بر أحدهم والديه، وترك الثاني اعتداء كان قادراً عليه، وأدى الثالث مال أجير مع ما نما منه. وانفجرت الصخرة حتى خرجوا. تحفظ القصة مشهد الخوف وما استحضره أصحابه من صادق العمل.

في خبر الأجير ترك العامل أجره عند صاحبه، فنام، ثم أعطاه إياه وما نتج عنه حين عاد. وفي خبر الآخر غلب خوف الله شهوته عندما ذكر بالحق. تفاصيل كهذه تجعل الإخلاص معنى مرئياً: يظهر حين يقدر الإنسان على أخذ ما ليس له ثم يتركه، وحين يحفظ حقاً غاب صاحبه.

تصل القصة بما تقدم عن النيات والوالدين والحقوق. فالعمل الذي كان خفياً عن الناس بقي معلوماً لله، ووجد أصحابه أثره في الشدة. هذا هو مركز الحكاية؛ وقد جاءت أعمالهم مختلفة ليجتمع البر والعفة والأمانة في معنى الصدق. والفرج المذكور حدث في هذه القصة كما رواه النبي، وليس موعداً متكرراً يحدده الناس لكل دعاء.

المراجع: 1

02 التوبة: الطريق يمكن أن يتغير

وفي خبر آخر من بني إسرائيل يحكي أبو سعيد الخدري عن رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم سأل عن التوبة. أجابه راهب بأنه لا توبة له فقتله، ثم استمر يسأل حتى دل على قرية يقصدها. خرج إليها، وأدركه الموت في الطريق، فذكر النبي ما كان من أمر الملائكة وأن الله غفر له.

تضع القصة أمام القارئ بشاعة ما صنع الرجل، ثم حقيقة توجهه إلى التغيير. لم يبق في مكانه مكتفياً بتمني نتيجة جديدة، بل خرج يقصد الطريق الذي دل عليه، ومال بصدرة نحوه حين أدركه الموت. تظهر التوبة في السؤال والاتجاه والحركة، ويظهر الرجاء في رحمة الله مع ثقل الماضي الذي حمله صاحبه.

المغزى يحرر المخطئ من اليأس الذي يثبته على حاله، ويعلم من يجيب الناس أن القول على الله بغير علم قد يضلهم. وفي الوقت نفسه تبقى خطورة الدماء والحقوق مما علمته النصوص الأخرى. يجمع القارئ القصة مع تلك النصوص، فيرى باب الرجوع مفتوحاً، ويرى إصلاح ما أفسده الإنسان جزءاً جاداً من التغيير الذي يطلبه.

المراجع: 2، 8

03 خبر مستقبلي في حديث جبريل

بعد أسئلة الإسلام والإيمان والإحسان، سأل جبريل عن الساعة، فأجابه النبي بأن المسؤول عنها ليس أعلم من السائل. ثم سأل عن علاماتها، فذكر منها أن يرى الناس رعاة الشاء الفقراء يتطاولون في البنين. في مجلس واحد اجتمع الإخبار بعلامة والوقوف عند حد العلم بوقت الساعة، فكل سؤال جوابه.

التطاول في البنيان يصور تنافسا على ارتفاعه وعظمته، في سياق تغير حال من كانوا أهل فقر ورعي. هذا هو المثال الذي يقدمه النص. أما تعيين مبنى أو دولة أو سنة بعينها بوصفها المقصودة، فدعوى زائدة تحتاج دليلا؛ تشابه صورة نراها مع وصف عام لا يمنحنا معرفة وقت النهاية أو تفاصيل الغيب.

وجود العلامات ضمن حديث تعليم الدين يربطها بالإيمان والعمل. يتعلم المسلم أن الدنيا متغيرة وأن لها نهاية، فيقابل قوتها وزينتها بوعي لا بالغفلة. والقرآن يقرر أن علم الساعة عند الله. بذلك يبقى للخبر معناه الذي يوقظ القلب، ويبقى الإنسان مسؤولا عن يومه الحاضر بدل أن يستبدل العمل بانشغال لا ينتهي بالتوقعات.

المراجع: 3، 4

04 من سؤال الموعد إلى الاستعداد

سأل رجل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فكان من جوابه سؤاله عما أعد لها. ذكر الرجل محبته لله ورسوله، فبشره النبي بأنه مع من أحب. ويروي أنس فرح الصحابة بهذا الجواب، ويذكر رجاءه أن يكون مع النبي وأبي بكر وعمر لمحبتهم لهم، وإن لم يبلغ مثل أعمالهم. يتحول السؤال هنا من تاريخ مجهول إلى علاقة وعمل يمكن للإنسان أن يبدأ بهما. والمحبة في هذا السياق تعلق بمن يهتدي المرء به ويرجو صحبتته. يأنس القارئ بأن باب الخير ليس محصورا فيمن بلغ أعلى مراتب الأعمال، ويجد في محبة الصالحين باعثا على الاقتراب من هديهم وتعلم ما أحبوا من الخير.

وبهذا التوجيه تتوازن أخبار الآخرة بين الخوف والرجاء. قد يوقظ ذكر النهاية الإنسان من تسويف طويل، وتفتح البشارة قلبه للأمل. كلا المعنيين يصحب صاحبه إلى الصلاة والمعاملة والتوبة. ويتضح وجه الصلة بالكتيبات السابقة: الاستعداد ليس موضوعا بعيدا عنها، بل هو ما تكتسبه تلك الأعمال من مقصد حين يعرف الإنسان إلى أين يمضي.

المراجع: 5

05 الحشر: وقوف الإنسان بعد انقضاء الدنيا

تروي عائشة أن النبي ﷺ أخبر بأن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا؛ أي غير مختونين. فسألت عن نظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض، فبين أن شدة الموقف تشغلهم عن ذلك. يحفظ الحديث خبر الحشر وسؤالا طبيعيا عن معناه، ويبين كيف يجيب التعليم النبوي عما قد يخطر في ذهن السامع.

الحشر اجتماع الناس بعد بعثهم، وفي هذا المشهد تظهر مفارقة الحياة الدنيا: يخرج الإنسان من اعتماد اعتاده على اللباس والمال والمكانة إلى موقف آخر. وتلفت إجابة النبي إلى أن أحوال الآخرة لها شدتها التي لا تقاس بمجرد ما يألفه الناس في مجالسهم العادية. فالخبر يصف حالا ويشرحها من داخل النص نفسه.

ومن أثر هذا الإيمان أن يرى المرء قيمة حياته في أعرق من مظهرها العابر. فالزينة نافعة في موضعها، لكنها ليست ما يحمل إليه الأمن في ذلك الموقف. يتصل الخبر بقصد العمل والعدل والتوبة، ويجعل الحياة فرصة للتهيؤ للقاء الله. والشرح النبوي لسؤال عائشة يقدم مثالا على إمكان السؤال للتعلم مع تصديق أصل الخبر.

المراجع: 6

06 الحساب: العرض غير المناقشة

سمعت عائشة النبي ﷺ يذكر عذاب من نوقش الحساب، فسألته عن الآية التي تذكر الحساب اليسير. فأجاب بأن ذلك العرض. يبين السؤال والجواب أن لفظ الحساب قد يراد به عرض الأعمال، وقد يراد به استقصاؤها ومناقشة صاحبها؛ ومعرفة هذا الفرق تجمع النصين اللذين بدوا للسائلة محتاجين إلى بيان.

يظهر في المثال دور السنة في شرح القرآن، وهو الدور الذي بدأنا به هذه السلسلة. فالوعد بالحساب اليسير باق، والتحذير من المناقشة باق، لكنهما لا يصفان صورة واحدة من كل وجه. ينقل الحديث علما بالغيب، ويعلم في الوقت نفسه طريقة فهم: جمع النصوص والاستماع إلى بيان الرسول لما أشكل من دلالتها.

ويعطي حديث المفلس بعدا آخر للحساب؛ إذ يحضر فيه حق من شتمهم الإنسان أو أخذ أموالهم أو آذاهم. يصبح اللسان والمال والمعاملة جزءا من الاستعداد للأخرة. بهذا يكتمل معنى العدل والرحمة في القراءة: يرجو المؤمن فضل الله، ويستحي أن يرجو النجاة وهو يستصغر حقا يعلم أنه تعلق بذمته لأحد من الناس.

المراجع: 7، 8

07 الإسرايليات: ثلاثة أنواع من الأخبار

تسمى أخبار منقولة عن أهل الكتاب في القصص والتفسير إسرايليات. ورواية النبي قصة عن أمة سابقة، مثل الغار أو التوبة، ليست مجرد حكاية نقلها مفسر عن أهل الكتاب. فقصة الغار تصف أصحابها بأنهم ممن كانوا قبلنا، وقصة التوبة تذكر بني إسرائيل. طريق وصول الخبر إلينا يبين منزلته، إلى جانب مضمونه وما يشهد له.

يقسم ابن تيمية هذه الأخبار في مقدمة التفسير ثلاثة أقسام: ما شهد له ما عندنا من الوحي فيعلم صدقه، وما خالفه فيعلم بطلانه، وما سكنت عنه أدلتنا فلا يصدق ولا يكذب جزما. تجوز حكاية القسم الثالث على وجه الحكاية. وفي البخاري النهي عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم، وهو يحفظ هذا التوقف فيما لم يتبين أمره.

ومن المثال الذي يذكره ابن تيمية الأخبار عن لون كلب أصحاب الكهف أو نوع خشب سفينة نوح. معرفة هذه الجزئيات تختلف عن معرفة إيمان الفتية أو نجاة نوح التي بينها الوحي. لذلك يمكن أن يفهم القارئ عظة القصة كاملة، ويبقى لون أو اسم من التفاصيل غير معلوم له؛ فدرجة المعرفة تتبع الدليل الذي وصل، لا مقدار الفضول.

المراجع: 9، 10

08 حكاية الخبر وفهم العبرة

ورد في البخاري الإذن بالتحديث عن بني إسرائيل، وورد فيه أيضا النهي عن الكذب على النبي. يفهم القارئ من جمع هذا مع بيان ابن تيمية أن حكاية خبر مسكوت عنه شيء، ونسبته جزما إلى الرسول أو بناء اعتقاد عليه شيء آخر. أما المخالف لما ثبت فتبين مخالفته، وأما الموافق فيستند تصديقه إلى الدليل الذي شهد له.

تساعد قصة أصحاب الكهف على تصور ذلك. يعرض القرآن خلافا في عددهم، ويعلم الأدب في الحديث عما يعلم وما لا يعلم. ويشرح ابن كثير ترجيح العدد المذكور أخيرا بدلالة سياق الآية. فهذا استدلال من النص يختلف عن إضافة اسم أو لون لم يثبت؛ كل تفصيل يأخذ منزلته من حجته، وقد تتفاوت منزلة التفاصيل داخل قصة واحدة.

تجمع أخبار الماضي والمستقبل والأخرة معاني هذه الكتيبات الأربعة: الإيمان بالله، وفهم الوحي، وصدق العبادة، وحفظ الحقوق، والرجاء في رحمته. نرى في الغار قيمة عمل مضى، وفي العلامة تذكيرا بتغير الدنيا، وفي الحساب مآل ما نعمل اليوم. وحين تقرأ الأخبار بهذه الصلة تتحول من معلومات بعيدة إلى فهم أعمق للزمن والمسؤولية وحياة الإنسان.

المراجع: 9، 11، 12

* المراجع

1. أصحاب الغار والإخلاص في البر والعفة والأمانة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الإجارة، الحديث 2272، رواية ابن عمر

تروي هذه الطريق أعمال الثلاثة وانفراج الصخرة، ومنها حفظ مال الأجير. يستطيع القارئ وصل مشاهدتها بموضوعات النية والوالدين والعمل في الكتيبات السابقة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

2. توبة الرجل الذي قتل مائة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث 3470، رواية أبي سعيد الخدري

يحفظ الخبر سؤال الرجل وخروجه إلى القرية وموته في الطريق ومغفرة الله له؛ فتظهر التوبة والرجاء في سياق قصة محددة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

3. السؤال عن الساعة وعن علاماتها

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث 8a، آخر حوار جبريل في الساعة وأمرتها

تجاوز عدم العلم بالموعد مع ذكر تناول رعاة الشاء في البنيان يشرح الفرق بين معرفة علامة ومعرفة وقت الساعة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

4. علم الساعة عند الله

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الأعراف، الآية 187

يبين النص أن موعد الساعة من علم الله، ويصل الأخبار بالغيب بحدود ما علمه الوحي للناس.

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

5. ماذا أعددت لها؟

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، الحديث 3688

يظهر في الجواب تحويل السؤال إلى الاستعداد، وفي تعليق أنس أثر البشارة بالصحة والمحبة في رجاء الصحابة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

6. الحشر وسؤال عائشة عن حال الناس

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الحديث 6527

يحفظ وصف الحشر مع البيان النبوي لشدة الموقف، فيستطيع القارئ فهم الخبر وسؤال عائشة والجواب متصلة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

7. بيان الحساب اليسير والفرق بينه وبين المناقشة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الحديث 6536، سؤال عائشة عن الانشقاق 8

يمثل الحديث لشرح السنة للقرآن في باب الآخرة؛ يفسر النبي الحساب اليسير بالعرض جواباً عن إشكال السائلة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

8. حضور حقوق الناس في الحساب

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث 2581

يربط مثال المفلس العبادات بالمعاملة، ويمنح الحديث عن الجزاء صلة مباشرة بالأموال والأعراض والأبدان.

المرجع الأصلي: sunnah.com

9. أقسام الإسرائيليات وحكاية ما سكت عنه

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — فصل أحسن طرق التفسير: أقسام الإسرائيليات؛ وفصل النوع الأول من الاختلاف الذي مستنده النقل فقط: أمثلة ما لا فائدة في تعيينه، ومنها خشب سفينة نوح.

يعرض التقسيم الثلاثي ويذكر أمثلة التفاصيل القصصية كلون الكلب ونوع الشجر. يشرح المرجع كيف تتفاوت منزلة المعلومات داخل باب واحد.

المرجع الأصلي: ar.wikisource.org

10. التوقف في الأخبار التي لم يتبين أمرها

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب التفسير، الحديث 4485؛ باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

يرد النهي عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم في سياق نقلهم بالعربية عن التوراة؛ ويقرأ مع تقسيم ابن تيمية لمعرفة موضع التوقف.

المرجع الأصلي: sunnah.com

11. الإذن بالحكاية والتحذير من الكذب

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث 3461

يجمع النص التبليغ والإذن بالتحدث عن بني إسرائيل والتحذير من الكذب على الرسول، فتتضح الصلة بين سعة الحكاية وأمانة النسبة.

المرجع الأصلي: sunnah.com

12. كيف يرجح التفصيل بدلالة القرآن؟

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الكهف، الآية 22؛ تعليق ابن كثير على الأقوال في العدد

يشرح ابن كثير ما يفيد سياق الأقوال في العدد، ويقدم مثالا على التمييز بين استدلال من النص وتفاصيل قصصية لم تقم حجتها.

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

* أسئلة وإجابات

ما الفرق بين حديث صحيح يحكي قصة عن أمة سابقة، وخبر إسرائيلي مسكوت عنه نقله مفسر؟

الأول ثابت عن النبي، كخبر الغار والتوبة، فيقبل بحسب ثبوته عنه. أما الثاني فلم يتبين صدقه أو كذبه بأدلتنا، فتجوز حكايته مع بقاء التوقف، ولا يحول إلى حديث نبوي أو اعتقاد جازم.

كيف يجتمع ذكر علامة للساعة مع عدم معرفة موعدها؟ وماذا يضيف جواب «وماذا أعددت لها»؟

العلامة خبر عما يقع، وليست تاريخا محددا للساعة. وجواب الاستعداد ينقل الاهتمام إلى الإيمان والمحبة والعمل الذي يتهيأ به الإنسان للقاء الله، بدل افتراض موعد لم يعلمه النص.

المقال في لماذا الحديث؟